إشكالية الأنواع الطبيعية في الطب النفسي (مقاربة هاكينج)

The Problem of Natural Kinds in Psychiatry (Hacking's Approach)

د. مينا سيتي يوسف فانوس(*)

الملخص :

إن فيلسوف العلم إيان هاكينج Ian Hacking (١٩٣٦–) في رؤيته لطبيعة الأنماط البشرية الموجودة في تصنيفات الطب النفسي، الواقع على الحدود بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، يُعوّل على وجود أنواع طبيعية واضحة مستقرة إلى حد ما في العلوم الفيزيائية وصعوبة ذلك في العلوم البيولوجية بشكل عام والعلوم الإنسانية على وجه الخصوص. إذ إن الكيانات المُصنَّفة في العلوم الإنسانية أقل استقرارًا؛ لكونهم على دراية بكيفية تصنيفهم، وقد تتغير استجاباتهم وسلوكياتهم بناء على هذه الكيفية. وبينما قد لا تُحدِث عملية التسمية والتصنيف فرقًا في الأنواع الطبيعية؛ ذلك أنها غير مبالية أو غير تفاعلية, تخضع أنماط الطب النفسي التفاعلية لآثار حَلَقية Looping Effects، ومِن ثَمَّ تصبح أهدافًا متحركة Moving Targets.

توفر الأنواع الطبيعية نظامًا للتصنيف، يمكن استخدامه عند وضع استدلالات استقرائية حول الكيانات المُصنَّفة وتفسيرها والتنبؤ بها؛ لتطوير تدخلات فعالة من قبل العلماء بعد ذلك. ولطالما اهتم فلاسفة العلم بالقضايا الإبستمولوجية والميتافيزيقية المتعلقة بتصنيفات الطب

* - مدرس فلسفة العلوم– قسم الفلسفة– كلية الآداب– جامعة القاهرة.

النفسي، وناقشوا وضع الاضطرابات النفسية بوصفها أهدافًا مشروعة للتحقيق العلمي عن طريق مناشدة قضية الأنواع الطبيعية. ولقد وضع هاكينج في إطار مناقشته لقضايا فلسفة العلم المعاصرة أطروحة مثيرة حول طبيعة تصنيفات الطب النفسي، ربما تعمل على تقدم محاولاتنا وصف التنميطات الدارجة تحت لواء الاضطرابات النفسية.

وتحاول الدراسة الإجابة عن التساؤلات التالية: كيف نفهم طبيعة الأنماط الطبية النفسية؟ كيف تستجيب الذات على تصنيفها؟ ولماذا؟ هل يؤدي التصنيف التشخيصي الجديد في الطب النفسي إلى نمط جديد من الأشخاص؟ إلى أي حد يتصل التغير الواقع في مفاهيم الأنا وسلوكها لدى الذات بالمعرفة التي تتلقاها من التشخيص؟ إلى أي حد يمكن التخلي عن مفهوم النوع الطبيعي في الطب النفسي؟ هل على الاضطرابات النفسية أن تكون أنواعًا طبيعية حتى تصبح فئات علمية ومهنية ذات صلة؟ إلى أي مدى يمكن أن يكون للجماعة العلمية سلطة على الاضطرابات النفسية؟

ولكي تتمكن الدراسة من الإجابة عن تلك الأسئلة السابقة، فإنها ستعتمد على المنهج التحليلي النقدي، الذي يهدف إلى تحليل المفاهيم والمشكلات المتضمَّنة في قضية البحث، وتحليل نصوص هاكينج نفسها؛ وذلك في محاولة لقراءتها قراءة نقدية لا تكتفي بعرض الأفكار، وإنما تحاول فهمها وتحليلها، ثم تقييمها.

الكلمات المفتاحية: هاكينج، الأنواع الطبيعية، التأثيرات الحَلَقية، المباءة الإيكولوجية، الأنواع العملية، الاضطراب العقلي، الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية DSM.

Abstract

In his view of the nature of human types the philosopher of science Ian Hacking (1936-) has found in the classifications of psychiatry, located on the border between the natural sciences and the humanities, set off from the existence of clear and fairly stable natural kinds in the physical sciences and the difficulty of this in the biological sciences in general and humanities in particular. Entities classified in humanities are less stable; because they are aware of how they are classified, their responses and behaviors may change based on how they are classified. While the process of naming and

categorizing may not make a difference in natural kinds, being indifferent or non-reactive, psychiatric reactive kinds are subject to looping effects, and thus become moving targets.

Natural kinds provide a system of classification, which can be used when making inductive inferences, interpreting, and predicting about the categorized entities; to develop effective interventions by scientists thereafter. Philosophers of science have long been concerned with epistemological and metaphysical issues related to psychiatric classifications, and have debated the status of mental disorders as legitimate targets of scientific investigation by appealing to the natural kinds issue. In his discussion of contemporary issues of philosophy of science, Hacking has put forward an interesting thesis on the nature of psychiatric classifications, which may serve to advance attempts to describe common patterns under the banner of psychiatric disorders.

The study attempts to answer the following questions: How do we understand the nature of psychiatric kinds? How does the self respond to its classification? And why? Does the new diagnostic classification in psychiatry lead to a new type of person? To what extent is the change in the concepts and behavior of the ego in the self related to the knowledge it receives from the diagnosis? To what extent can the concept of the natural kind be abandoned in psychiatry? Do psychiatric disorders have to be natural kinds to become relevant scientific and occupational categories? To what extent can the scientific community have authority over psychiatric disorders?

The methodology the researcher uses in this study for answering these previous questions is the analytical-critical method that aims at analyzing the concepts and the problems included in the research theme. This method also aims at analyzing Hacking's texts to understand and assessing them.

Keywords: Hacking, Natural Kinds, Looping Effects, Ecological Niche, Practical Kinds, Mental Disorder, Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders DSM.

المقدمة

تسعى العديد من التخصصات العلمية النموذجية إلى تطوير النظريات العلمية التي تصوغ تعميمات من ناحية الأنواع الطبيعية[١]؛ لكي تعمل على الفصل في موضوعات بحثها وتصنيفها، على نحو ما تفعل الكيمياء المُصنفة لمواد فردية عبر بنياتها الواقعة على المستوى الجزيئي. ويعد التعميم الاستقرائي أحد الممارسات العلمية التي تساعد فكرة النوع الطبيعي على تعزيزها؛ إذ تُصاغ التعميمات الاستقرائية على أساس حالات فئة ملاحظة، وترخّص بدورها لاستدلالات حول الحالات غير الملاحظة بالمثل، والتمييز بين الفئات غير العرضية والفئات التي قلما يوجد تعميمات حولها. والجانب الرئيس لأي نوع طبيعي هو تشارك أعضائه في العديد من الخواص أو العلاقات المترابطة بشكل غير عرضي، وإن كان غير منطقي.

كما تعزز فكرة النوع الطبيعي ممارسات التفسير العلمي؛ فمعظم العلوم تنشد تفسير وجود الخواص المترابطة عن طريق تحديد البنيات أو العمليات أو الآليات التي تُفسِّر عِلّيًا تلك الخواص المرتبطة بهذه الأنواع. على سبيل المثال، نجد أن العامل التفسيري ذا الصلة بطبيعة الماء هو التركيب الكيميائي لجزيئاته.

ويعد الاضطراب العقلي مشكلة صحة عامة متصاعدة ومُلحة. وقد كان للتحقيق العلمي في تلك المشكلة أهداف برجماتية، تتمثل في تحديد علل الاضطرابات العقلية، وتطوير إستراتيجيات لعلاجها بشكل فعال، وتفسيرها، والتدخل فيها، والتنبؤ بها. وسادت في الدراسات وجهة النظر القائلة باعتماد مسألة ما إذا كان شيء ما قابلًا للتحقيق التجريبي على ما إذا كان نوعًا طبيعيًا أم لا. وعلى هذا النحو تمكننا الأنواع الطبيعية من صياغة تعميمات علمية ناجحة. وإذا كانت الاضطرابات العقلية أنواعًا طبيعية، فمن المفترض أن تولد تفسيرات ناجحة، وتدخلات فعالة، وتنبؤات وثوقية. وبناء عليه، ذهب بعض فلاسفة الطب النفسي إلى توقف شرعية الاضطرابات العقلية العلمية على وضعها كأنواع طبيعية.

ومع ذلك، هناك مجموعة من التحديات والصعوبات التي تقف عائقًا أمام اكتشاف أنواع طبيعية في الطب النفسي. فأولًا: ليس تعريف النوع الطبيعي نفسه واضحًا أو خاليًا من النزاع

والنقاش. ويتمثل التحدي الأكبر الذي يواجهه الفيلسوف الراغب بعزو نوع طبيعي للاضطرابات العقلية في الفصل بين مختلف خصائص الأنواع الطبيعية القائمة في الدراسات الفلسفية. ولم يتفق الفلاسفة حول الخصائص التي ينبغي توافرها في فئة الأفراد حتى يصبحوا أنواعًا طبيعية. ويعقّد عدم وجود توافق في الآراء بشأن تعريف الأنواع الطبيعية عملية تقويم حالتها بالنسبة إلى الاضطرابات العقلية. فما الذي يلتزم به الفيلسوف عندما يزعم أن هذه الاضطرابات أنواعٌ طبيعية؟ وهل لها مجموعة من الخواص الماهوية التي يتشارك فيها جميع أعضاء فئاتها؟ وهل هي كافية وضرورية لعضوية النوع؟ أو هل تتقاسم تلك الاضطرابات عددًا من الخواص المستقرة ذات الآلية التحتية، بما يسمح بصياغة تعميمات علمية؟

ولقد وضع إيان هاكينج[٢] في إطار مناقشته لقضايا فلسفة العلم أطروحة مهمة حول طبيعة تصنيفات الطب النفسي، ربما تعمل على تقدم محاولاتنا وصف كينونة التنميطات الواقعة في تصنيفات الاضطرابات النفسية. ولسوف نُركز في هذه الدراسة على ادعاء مقاربة هاكينج المصرحة بعدم حاجة أنواع الطب النفسي إلى مفهوم النوع الطبيعي.

أولاً: الأنواع الطبيعية: تعريفها وسماتها ومغزاها في الطب النفسي

تبعًا لمعظم التعاريف القياسية، نجد أنه من السمات التي ينبغي أن يحظى بها النوع الطبيعي: (١): الانفصال. إذ ينبغي أن تكون فئات الأنواع الطبيعية كيانات منفصلة منمازة بشكل معقول، ويمكن تمييزها عن بقية الظواهر الأخرى. (٢): التجانس. كالماء على سبيل المثال الذي تتشارك حالاته العديد من الخصائص المشتركة، وكأنه يمتلك وحدة فعلية. (٣):الاستقلال عن العقل. فمن صميم مفهوم النوع الطبيعي الفكرة القائلة بوجود الأنواع وجودًا فعاليًا في الطبيعة. وبعبارة أخرى، عدم اعتماد وجودها (ميتافيزيقيًا) على الكيفية التي نصنف بها الأمور، وحتى لو لم ننشغل بتصنيف أشياء مثل النجوم، فلا تزال هذه الأشياء موجودة وقائمة في الطبيعة.

ولقد أقر بعض فلاسفة الطب النفسي بصعوبة تحقق تلك السمات في حالة الاضطرابات العقلية. فمن ناحية الانفصال، مال بعض الفلاسفة إلى التصريح بأن تلك الاضطرابات ليست

أنواعًا طبيعية؛ لامتلاك فئة الاضطراب حدودًا غامضة، ومِن ثَمَّ غير محدد ما إذا كانت كيانات معينة اضطرابات أم لا. وبعبارة أخرى، لا توجد نقاط واضحة لإقامة تمييز بين الاضطرابات العقلية والظواهر الأخرى؛ لكون تلك الاضطرابات تقع على تواصل مع الخبرة السوية غير المرضية. والسؤال في حالة الاكتئاب على سبيل المثال هو ما إذا كان هناك فرق كيفي أم كَمّيّ فحسب بين أعراض الاكتئاب اليسير وأعراض الاكتئاب الشديد بوصفه متلازمة. ويقتضي الالتزام بالنظرة التواصلية للاكتئاب الإبقاء على الفرق الكَمّيّ بين صور الاكتئاب الخفيف والشديد؛ بينما يستتبع الالتزام بنظرة غير تواصلية انفصالية معالجة الاكتئاب الشديد بوصفه كيانًا قائمًا بذاته.

مما يقع في صالح النظرة التواصلية فشل التحليلات التصنيفية في إيجاد دليل على فئة كامنة من شأنها دعم المقاربة الفئوية (categorical)[٣]. ذلك أن الاكتئاب الشديد يمثل نقطة نهاية سلسلة أعراض الاكتئاب، وليس كيانًا منفصلًا بنيويًا. ويميل البحث التصنيفي المعاصر لصالح النظرة التواصلية للاكتئاب، وليس بالإمكان في حالته تقطيع الطبيعة من مفاصلها، وتحديد نقطة على سلسلة متواصلة؛ لعدم وجود أدلة على الانفصال. وعلى أي حال، يحبذ البحث التصنيفي المعاصر المقاربة البُعدية (dimensional)، لا الفئوية، نتيجة لدعم بنية المقاييس السيكومترية والأجهزة العيادية لها. ووفق هذا تقع معظم الاضطرابات العقلية على تواصل واستمرارية بين الظروف المرضية والظروف الطبيعية.

أما من ناحية سمة التجانس، فقد ظهرت مجموعة من الاعتراضات التي تتحدى هذا المتطلب بناء على عدم وجود نوع متجانس كافٍ من الآليات أو العمليات التي بإمكانها القيام بهذا الدور. فهناك عدم التجانس العِلّيّ المُهدِّد للوحدة التفسيرية؛ نتيجة لاقتراح البحث العلمي النيوروبيولوجي اعتماد الاضطرابات العقلية المختلفة على حالات وعمليات وآليات نيوروبيولوجية مختلفة. ومِن ثَمَّ، من غير المعقول ادعاء أن الآلية النيوروبيولوجية نفسها مسؤولة عن جميع أعضاء الاضطراب نفسه. علاوة على أن الاختلافات هنا ليست مجرد اختلافات

نيوروبيولوجية، وإنما توجد كذلك تعددية معرفية على مستويات نفسية، وقد تحظى الاختلافات القائمة بين الحالات الفردية بوظيفة تفسيرية مُهمة بالمثل.

وتأتي الاعتراضات على سمة الاستقلال عن العقل في عدة صور؛ فيرى بعض فلاسفة الطب النفسي أن الاضطرابات العقلية ليست أنواعًا طبيعية، وإنما اصطناعية ناتجة عن تفكيرنا الشائع حول ما هو عقلي. وهناك واقعة تقول إن محتوى الاضطرابات العقلية حساس للغاية تجاه السياق الاجتماعي، وما إذا كان اعتقاد المريض مقبولًا من قبل أعضاء ثقافته الآخرين أم لا. وتنشأ بعض الاضطرابات العقلية نتيجة تفاعلات معقدة تقع بين حوادث وشؤون تاريخية، مما يلقي الضوء على دور العوامل والقوى الاجتماعية في عملية اختلاق الاضطراب لا اكتشافه. وبناء عليه، لا يصدق الاضطراب العقلي هنا على المُصابين بالاضطرابات النفسية في كل زمان ومكان، ولا يتميز بوحدة جوهرية داخلية مستقلة عن العقول الأخرى، وإنما قد يُصقَل عبر مجموعة من الأحداث والممارسات العاكسة لاهتمامات ومعايير ومؤسسات اجتماعية مختلفة.

ثانيًا: في سياق ذكر التحديات والصعوبات التي تقف عائقًا أمام اكتشاف أنواع طبيعية في الطب النفسي، تعرّض الطب النفسي خلال ستينيات القرن العشرين وسبعينياته إلى هجوم ضار من داخل حقله وخارجه (كهجوم ميشيل فوكو). فمن داخل حقله، كان الطبيب النفسي توماس ساس Thomas Szasz[٤] (١٩٢٠–٢٠١٢) من أوائل من هاجموا الطب النفسي بناء على تصريحه بأن الاضطرابات العقلية لا يمكن عدها اضطرابات طبية بشكل سليم. وهذا يعني أن ساس يرى أن الاضطراب العقلي خرافة، وليس مرضًا حقيقيًا كالمرض البدني الذي يعد عنده نموذجًا إرشاديًا لجميع الأمراض[٥]. وليس الطب النفسي في نظره سوى نزع للإنسانية عن الناس، ذاهبًا إلى أن لكل إنسان مشكلاته المعيشية، وما الاضطرابات العقلية عنده سوى مشكلات معيشية[٦]. وعندما ننعت شخصًا بأنه مصاب باضطراب عقلي معين، فإن ذلك يمنعه من تحمل مسئولية التعامل مع هذه المشكلات.

ويمكن القول إن ساس يرى أن الاضطرابات العقلية لا تُشير إلى أنواع طبيعية مُكتشفة، وإنما إلى أنواع اصطناعية مُختَلَقة. ويقيم ساس تمييزًا بين الاضطرابات البدنية بوصفها أنواعًا طبيعية

والاضطرابات العقلية الاصطناعية (أي الأفكار والمشاعر والسلوكيات غير الناتجة عن عمليات بيولوجية باثولوجية محددة).

ثالثًا: ظهرت نسخ "الدليل التشخيصي الإحصائي الأمريكي للاضطرابات العقلية Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders" (أو ما يعرف اختصارًا DSM) الخمسة منذ عام ١٩٥٢ من قِبل "الجمعية الأمريكية للطب النفسي". وروجعت عدة مرات بانتظام حتى وصلت في الوقت الحاضر إلى خمس طبعات. وكان الظن الأساسي هنا هو أنه كلما تقدم العلم، أصبح بالإمكان اكتشاف المُسببات المرضية الواقعة تحت كل نوع طبي نفسي، وفي النهاية تشييد نظام تصنيفي للاضطرابات العقلية قائم على تشابهات طبيعية حقيقية وفروق قائمة بين الاضطرابات العقلية المختلفة.

وقد حاولت طبعات DSM الخمس استكشاف شكل من أشكال الأنواع الطبيعية عبر استعمال تصنيف دولي. ومع ذلك، سرعان ما ظهرت قيود وصعوبات وتحديات ملموسة متعلقة بالقضايا متعددة الثقافات وفردية الحالات، وقيم كامنة في تصنيف الاضطرابات العقلية، ومفاهيم مُحملة بالنظرية. وعلى الرغم من أن هذه الطبعات ساعدت الأطباء في تحقيق شكل من التواصل والاتفاق التشخيصي إلى حد ما، فإنها لم تفدْهم كثيرًا عند اتخاذ قرارات العلاج، وواجهت عدة مشكلات.

من ضمن هذه المشكلات محاولتها خلق معايير تشخيصية خالية من القيم، التي باءت بالفشل. فقد استمرت أحكام القيمة في ممارسة دورها، والاندماج في تعريفات الاضطرابات المختلفة، كما لم توضح هذه الطبعات كيفية التمييز بين «السوي» «وغير السوي». علاوة على ترددها تجاه مدى عمومية أو محلية، استبعاد أو عدم استبعاد، الاضطرابات العقلية المرتبطة بالثقافة، بسبب الفروق القائمة في الثقافات والبنى الاجتماعية واللغات وطرق التفكير بين المجتمعات المختلفة. وعلى الرغم من أن فئات DSM وثوقية، فإنها تفتقر إلى الصحة Validity، بمعنى عوزنا لأي ضمان بأن فئات DSM التشخيصية تضع خريطة لاضطرابات

عقلية موجودة في الواقع الفعلي؛ نتيجة عدم معرفة المُسببات المرضية للاضطرابات العقلية، وغياب علامات بيولوجية واضحة في الغالب.

كما طرح كثير من فلاسفة العلم أسبابًا للاعتقاد بعدم قدرة طبعات DSM على تصنيف أنواع طبيعية. فذهبت فيلسوفة العلم البريطانية راشل كوبرRachel Cooper (١٩٧٤–) – على سبيل المثال– إلى أن هدف تصنيف DSM للأنواع الطبيعية قد أعاقته العوامل الاجتماعية والمالية الخاصة بالصناعات الدوائية والطبية. فقد أيدت طبعات DSM بعض الاضطرابات العقلية (كاضطراب الهلع ونقص الانتباه وغيرها) وبررتها عبر الحملات التسويقية التي استهدفت إثبات استطاعتها علاجها عن طريق أدوية مُحددة، كما قامت طبعات DSM بدور في مسألة سداد التأمين الطبي عن طريق إثبات شرعية بعض الاضطرابات العقلية[٧]. في النهاية، وجدنا تلك التصنيفات تخدم أمورًا مهنية وانشغالات مجتمعية، وتقوم على افتراضات ثقافية، وتختلف عبر المكان والزمان، وتتفاعل مع التصوّرات العامة بشكل تبادلي.

ولطالما اهتم فلاسفة الطب النفسي بالقضايا الميتافيزيقية المتعلقة بتصنيفات الطب النفسي، وناقشوا وضع الاضطرابات العقلية بوصفها أهدافًا مشروعة للتحقيق العلمي عن طريق مناشدة الأنواع الطبيعية. وتعددت اتجاهاتهم ما بين واقعية (قوية أو مُخففة) وبنائية تواضعية (صارمة أو وسطية) وتعددية، واستخدموا عدة إستراتيجيات لمقاومة أو تعزيز التحدي القائل بأن الاضطرابات العقلية ليست أنواعًا طبيعية. وذهب بعضهم إلى تبرير فئة الاضطرابات العقلية كفئة من فئات الأنواع الطبيعية، وترسيم الأفكار الفلسفية المختلفة للنوع الطبيعي، ومِن ثَمَّ توضيح الكيفية التي يقع فيها الاعتلال العقلي داخل إحدى تلك الأفكار. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى طرح بعض فلاسفة علم الطب النفسي مفاهيم بديلة لمفهوم النوع الطبيعي تحظى بمكانة علمية، وتغطي مفهوم الاضطراب العقلي[٨].

بينما أكد بعضهم الآخر مثل هاكينج على ضرورة الاستغناء عن مفهوم النوع الطبيعي جملة وتفصيلًا، وعدم فاعليته وجدواه داخل حقل الطب النفسي وتشخيصاته. ولسوف نتناول في

القسم التالي من هذه الدراسة الكيفية التي استطاعت بها مقاربة هاكينج أن تصف سبل عدم حاجة أنواع الطب النفسي إلى مفهوم النوع الطبيعي.

ثانياً: الأنواع التفاعلية عند هاكينج

١- المباءة الإيكولوجية

هناك أطروحتان رئيستان قادتا هاكينج في أعماله المتأخرة إلى تحبيذ الاقتراح الراديكالي القائل بضرورة "استبعادنا أي ذكر للأنواع الطبيعية"[٩] في الطب النفسي. تتعلق الفكرة الأولى باستحضار هاكينج للاستعارة البيولوجية «المباءة (المجال الحياتي)[١٠] الإيكولوجية Ecological niche» لتفسير ظهور اضطراب عقلي معين في مكان وزمان محددين، وليس في مكان أو زمان آخرين. ويقترح هاكينج أنه على شاكلة الكائنات الحية البيولوجية تنمو الاضطرابات العقلية المؤقتة العابرة داخل بيئة محددة. ولكن بينما تعتمد الكائنات الحية على مواضع التكاثر والإمدادات الغذائية، تعتمد الاضطرابات العقلية العابرة على مبادئ تفسيرية تشبه «المتجهات vectors»: كالتصنيف الطبي، والاستقطاب الثقافي، والقابلية للملاحظة، والتحقق الثقافي. وعلى حد تعبير هاكينج:

"تتطلب هذه المباءات عددًا من المتجهات. أؤكد أربعة منها: المتجه الأول طبي بالضرورة؛ إذ ينبغي أن يندرج الاضطراب في إطار أكبر من تشخيص الاضطراب وتصنيفه. والمتجه الأكثر أهمية هو الاستقطاب الثقافي؛ إذ ينبغي أن يتموضع الاضطراب بين عنصرين للثقافة المزامنة له: أحدهما فاضل ورومانسي، والآخر فاسد أنزع إلى أن يكون موضع تجريم. وتعود عملية تحديد ما يعد جريمة أم فضيلة إلى المجتمع الأكبر، وليست الفضائل ثابتة طوال الوقت ... ثم نحتاج إلى متجه القابلية للملاحظة. إذ ينبغي أن يكون الاضطراب واضحًا مرئيًا بوصفه اضطرابًا فعليًا وكمعاناه وكشيء يستدعي الهروب منه. وأخيرًا على الرغم مما يسببه الاضطراب من ألم، ينبغي أن يوفر بعض الإصدارات في الثقافة التي نما بداخلها غير متوفرة في مكان آخر"[١١].

لقد صرح هاكينج بذلك في كتابه «مسافرون مجانين: تأملات في واقع الأمراض العقلية العابرة» الصادر عام ١٩٩٨، واستعمل فيه الشرود (fugue) كدراسة حالة لفحص السبب

الذي يجعل بعض الاضطرابات العقلية تزدهر في مكان وزمان محددين فحسب، أو أن تكون عابرة –بحسب تعبيره. ومن سمات الشرود بوصفه اعتلالًا انشقاقيًا: السفر وفقدان الذاكرة. فإن هؤلاء الذين يعانون من الشرود يشعرون أنهم مضطرون إلى التجول، وبحالات متقلبة من الوعي. إنهم يأتون من منازلهم عبر عدة أميال دون أي فكرة عما يفعلونه. ويزعم هاكينج أن الشرود ظهر في فرنسا بين عامى ١٨٨٧ و١٩٥٩، حيث وفرت فرنسا خلال تسعينيات القرن التاسع عشر بيئة مثالية للشرود؛ كضوابط الشرطة، وإقرار المجتمع الطبي بالشرود كنوع من الصرع أو الهستريا في ذلك الوقت[١٢]. والنقطة هنا هي أن مجموعة من العوامل التاريخية والقوى الاجتماعية قد تجعل ظهور اضطرابات عقلية معينة ممكنة، وبمجرد ظهورها يمكنها الانتشار، وامتلاك حياتها الخاصة.

٢- التأثيرات الحَلَقية

علاوة على ما سبق، وضع هاكينج أُطروحة ثانية أكثر أهمية وإثارة حول تصنيفات الطب النفسي، قد تعمل على تقدم محاولاتنا وصف الأنواع الدارجة تحت عنوان الاضطراب العقلي، وتبرر عدم استطاعة طبعات DSM تصنيف أنواع طبيعية. فذهب هاكينج إلى أنه –على النقيض من كيانات التصنيف المستقرة في العلوم الطبيعية (كالذهب والبلوتونيوم والإلكترونات والكواركات)– تعد الكيانات المصنَّفة في الطب النفسي (والعلوم الإنسانية بشكل عام) غير مستقرة بالمرة بسبب «التأثيرات الحَلَقية looping effects» الخاصة بتصنيفات الطب النفسي[١٣].

التأثيرات الحَلَقية هي الآثار الارتجاعية الاجتماعية المرتبطة بتصنيفات العلوم الإنسانية؛ إذ يتغير الأفراد المصنَّفون استجابة للكيفية التي يتم عبرها تصنيفهم. فعلى سبيل المثال، يتصرف الأطفال المشخصون بأنهم يعانون من اضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط (ADHD) بناء على القوالب النمطية المتعلقة بهذا التصنيف[١٤]؛ وذلك لأن الكيانات المصنَّفة في العلوم الإنسانية (بخلاف الكيانات المصنَّفة في العلوم الطبيعية) مُدركة لكيفية تصنيفها، ولسوف تغير استجابتها بناء على هذه الكيفية. وقد كتب هاكينج يقول:

"لطالما كنت مهتمًا بتصنيفات الأشخاص، وكيف تؤثر على الأشخاص المصنفين، وكيف يؤثر ذلك على الأشخاص بدورهم في تغيير التصنيفات. نحن نفكر في أنواع كثيرة من الناس كأهداف للفحص العلمي: في بعض الأحيان للسيطرة عليهم؛ مثل العاهرات؛ وأحيانًا لمد يد العون لهم، كمن لديهم نوازع للانتحار؛ وفي بعض الأحيان للتنظيم والمساعدة؛ مع الحفاظ على سلامتنا في الوقت ذاته، مثل الفقراء أو المشردين؛ وفي بعض الأحيان بهدف تغييرهم لمصلحتهم وللمصلحة العامة، مثل المصابين بالسمنة؛ وفي بعض الأحيان لمجرد الإعجاب والفهم والتشجيع، وربما حتى لمحاكاة العباقرة (أحيانًا). نحن نفكر في هذه الأنواع من الناس على أنها فئات محددة تحددها خواص معينة. وعندما نتعرف أكثر على هذه الخواص، سنتمكن من السيطرة عليها أو مساعدتها أو تغييرها أو محاكاتها بشكل أفضل. لكن الأمر ليس كذلك تمامًا؛ إنها أهدافٌ متحركة، لأن فحصنا يتفاعل معها ويُغيرها. ولأنها تتغير، فلن تكون هي ذات الأنواع من الناس كما كانت من قبل: تم نقل الهدف. وأنا أسمي هذا (تأثيرًا حَلَقيًا). في بعض الأحيان، تؤدي علومنا إلى اختلاق أنواعٍ من الناس لم تكن موجودة من قبل بمعنى ما، وأسمي هذا (تشكيل أو اختلاق الناس)" [١٥].

ويذكر هاكينج أن العلوم الطبيعية تدرس الأنواع الطبيعية (التي يصفها بأنها «أنواع غير مبالية indifferent kinds»[١٦]) وتصنيفاتها، بينما تصنف العلوم الإنسانية «أنواعًا بشرية human kinds»[١٧]. وبينما لا تبالي الأنواع الطبيعية بعملية تصنيفها، تتفاعل الأنواع البشرية مع تصنيفاتها. ويقول هاكينج: "أعتقد أن دور الأنواع البشرية في حياتنا، وكذلك في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ليس له علاقة تذكر بمشاهدي أنشطة الاستقراء والتفسير الرياضية المثيرة للإعجاب للغاية في بعض نظريات الأنواع الطبيعية "[١٨] نتيجة لتأثر "الأناس بما ننعتهم، والأهم من ذلك بالتصنيفات المتاحة التي يمكن أن يصفوا بداخلها أفعالهم الخاصة، وجعل خياراتهم الخاصة مقيدة. فيسلك الأشخاص ويتصرفون بناء على الأوصاف، وكلما ظهرت أوصاف جديدة، تظهر أنواع جديدة من التصرفات"[١٩].

ولنتناول المثال الذي طرحته أستاذة الفلسفة والكلاسيكيات بجامعة تكساس سيرفي تيكين Şerife Tekin على تعقد التأثيرات الحَلَقية[٢٠]. كارل طالب يبلغ من العمر ٢٦ عامًا، يعمل على دكتوراه في الموسيقى، وهو معروف بانفتاحيته عند التعرف على الأشخاص. ويعلِّم الأطفال عزف البيانو في وقت فراغه. ولديه زميلان في الغرفة. كان كلبه معه منذ كان في أوائل العشرينيات من عمره. بدأ كارل خلال دراسته في سماع أصوات تطالبه بضرب جدران غرفة نومه، وفي رؤية صور مرعبة كالنيران المشتعلة. يتحدث إلى نفسه في محاولة لتهدئة الأصوات التي تجأر في رأسه. ذهب إلى أخصائية قررت بعد زيارات قليلة أنه مصاب بالشيزوفرنيا، ووصفت نوعًا من الأدوية المؤثرة في تخفيض أعراض الهلوسة. بعد ذلك حدثت مجموعة مترابطة من التغيرات التصوّرية والسلوكية في كارل بناء على تشخيصه – نقطة انطلاق تأثيرات هاكينج الحَلَقية. فعلى سبيل المثال، أصبح كارل يقضي وقتًا أقل في الأماكن العامة، وتوقف عن تدريس البيانو، ونتيجة لدوائه أصبح ينام كثيرًا، ويخفي ارتعاش يديه، كما أصبح منعزلًا اجتماعيًا، ويأمل في تسريح كلبه، ويتصفح الإنترنت وصفحات المرضى الآخرين المصابين بالاضطراب نفسه. وحين سمع عبر وسائل الإعلام بعدم حصول المصابين بهذا الاضطراب على وظيفة، فكر في ترك دراسته العليا.

وعلى النقيض من هذه الأنواع التفاعلية (كالشيزوفرنيا والاكتئاب وغيرها)، لا تُسبب عملية تصنيف نوع طبيعي (أو غير مبالي) كالذهب أي تفاعل أو تأثير فيه. وبعبارة أخرى، يود هاكينج التصريح بأنه عندما يصنف العالم الطبيعي قطعة من الذهب، فإنه لا يُحدث أي فرق في الذهب، ولا يغير شيئًا في الكيان الواقع تحت الدراسة، ولا تنتج هذه الكيانات أي مردود استرجاعي بعد تصنيفها، يقود إلى تغير في التصنيف. في المقابل، قد يعدل الأفراد المصنفين سبل تصرفهم، ويتفاعلون ويغيرون فيها باستمرار، وبالتالي تظهر حاجة تصنيفات تلك الأنواع البشرية إلى تنقيحها باستمرار، لاستيعاب هذه التغيرات التي بدورها تسبب مزيدًا من التغييرات في الأناس المصنفين. وتثبت هذه التأثيرات الحَلَقية عند هاكينج اختلاف الأنواع البشرية في النوع، وليس في الدرجة، عن الأنواع الطبيعية غير المبايلة؛ كونها أهدافًا متحركة.

طرح هاكينج في كتاباته المختلفة تصوّرًا مدروسًا للأنماط البشرية المختلفة. ولم يكتف باستكشاف تلك الأنماط الواقعة داخل الطب النفسي العابرة منها والدائمة (كالشخصية المتعددة multiple personality، والشذوذ الجنسي، والاكتئاب، والتوحد، وإساءة معاملة الأطفال) فحسب، بل تناول بالدراسة أيضًا مجموعة واسعة من فئات الأشخاص التي تدرسها العلوم الإنسانية المختلفة؛ كالمصابين بالسمنة والمجرمين واللاجئات وغيرهم. ولم يقتصر منظوره على تلك الفئات الموجودة بالفعل، بل تقع فكرة «اختلاق أنواع من الأشخاص» في قلب هذا المنظور أيضًا. وعلى حد تعبيره: "أحيانًا تخلق علومنا أنواعًا من الأشخاص الذين لم يكن لهم وجود من قبل بمعنى محدد بالفعل. وهذا هو ما يسمى باختلاق making up الأشخاص"[٢١]. بينما نجد على النقيض من ذلك أن تصنيف معدن بوصفه بلوتونيوم هو تصنيف لنوع غير مبالي: فلا يمكن أن تكون المادة واعية بعملية تصنيفها، ولا يحدث أي شيء يتعلق بعملية تصنيفها فرقًا في خواصها المتأصلة فيها.

أما المصابون بالاضطرابات العقلية فيدركون التصوّرات والمواقف الموجهة لهم في ثقافتهم، ويعرفون آثار الأدوية والعقاقير الطبنفسية، ويقدرون ما قد تُحدِثه أوصاف أعراضهم، ويتفاعلون مع الأطباء وأسئلتهم أيضًا. وقد وصف هاكينج في سياق مناقشة تاريخية لاضطراب الشخصية المتعددة التأثيرات الحَلَقية للأنواع البشرية على النحو التالي:

"إننا نميل إلى التصرف بالطرق التي نتوقعها، خاصة كما هو الحال لدى الشخصيات السلطوية –كالأطباء على سبيل المثال. وقد كان لدى الأطباء النفسيين أفراد مصابون بشخصيات متعددة بين مرضاهم خلال أربعينيات القرن التاسع عشر، ولكن صورتهم عن الاضطراب كانت مختلفة تمامًا عن الصورة التي شاعت في تسعينيات القرن العشرين. وقد كانت رؤية الأطباء مختلفة لأن ... توقعات الأطباء كانت مختلفة. ويعد هذا مثالًا على ظاهرة عامة للغاية: ألا وهي التأثير الحَلَقي للأنواع البشرية"[٢٢].

٣- الاسمية الديناميكية

يوظف هاكينج ظاهرة التأثيرات الخَلَقية في مناشدة «الاسمية الديناميكية dynamic nominalism»؛ التي تتفاعل فيها التصنيفات العلمية مع الظواهر البشرية، مما يقود إلى تغييرات متبادلة. وتعد اسمية هاكينج الديناميكية السقالة الميتافيزيقية لظاهرة التأثيرات الخَلَقية. فقد استكشف هاكينج الأشخاص المختلقين عن طريق مناشدة صلة نقاش الواقعية في مقابل اسمية أو اصطلاحية أو مواضعتية أو بنائية الظواهر البشرية. ويدور السؤال المحوري داخل هذا النقاش حول ما إذا كان هناك أي شيء في الواقع يطابق الكُليَّات، أم أن هناك جزئيات فحسب.

يسلِّم الواقعيون في أنطولوجيتهم بالكُليَّات باعتبارها أمورًا مستقلة عن الذهن؛ فالطبيعة عندهم هي المانحة للكُليَّات، ووجودها مستقل عن أي ذهن بشري مُدرك. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يذهب الاسميون الاستاتيكيون المتطرفون إلى عدم وجود الكُليَّات في أنطولوجيتهم، إذ لا وجود لديهم إلا للجزئيات التي هي نتاج الاختراع الإنساني الذي يفرز هذه الجزئيات بحسب المصالح البشرية. وينكر الاسمي الاستاتيكي –بحسب هاكينج– وجود عالم مستقل عن الذهن، مُرتب في فئات أنيقة، ذاهبًا إلى أن جميع التصنيفات والفئات قد فُرضت عن طريق مواضعات بشرية، وليس عن طريق الطبيعة، حتى أصبحت تلك الفئات ثابتة بمرور الزمن. في المقابل يلتزم الواقعي التقليدي بالفكرة القائلة بأن العالم مُرتب بالفعل بشكل طبيعي، ومستقل عن البشر، الذين يدركون فئاته عبر تقدم العلم.

وتتنزل اسمية هاكينج الديناميكية مرتبة وسطا بين الواقعية التقليدية والاسمية الاستاتيكية. ويذهب هاكينج إلى أن العديد من الفئات تأتي من الطبيعة، وليس من الذهن البشري، ولكن دون أن تكون هذه الفئات استاتيكية؛ لأن أعمال التسمية والتصنيف تؤثر في الأفراد المصنفين داخل تلك الفئات.

يقول هاكينج: "إنني أعتقد أن الاسمية الاستاتيكية خاطئة إلى حد كبير؛ لأنني أعتقد أن العديد من الفئات تأتي من الطبيعة، وليس من الذهن البشري، وأن فئاتنا ليست ثابتة. ويستحوذ نوع مختلف من الاسمية – نعته بالاسمية الديناميكية – على أناتي الإنسانية الواقعية.

ولا يذهب ادعاء الاسمية الديناميكية إلى أن هناك نوعًا من الأشخاص قد أصبح معروفًا من قبل البيروقراطيين أو طلاب الطبيعة البشرية، وإنما ظهور نوع من الأشخاص إلى الوجود في الوقت نفسه الذي يُختلق خلاله هذا النوع. ففي بعض الأحيان، تتعاون تصنيفاتنا وفئاتنا بحيث تظهر جنبًا إلى جنب، ويحرّض بعضها بعض"[٢٣].

تظهر أنواع الأفراد داخل اسمية هاكينج الديناميكية بوصفها نتاجًا ديالكتيكيًا قائمًا بين التصنيفات وما يتم تصنيفه. ولا يمكن تشخيص هذه الظاهرة عند هاكينج لا عن طريق اسمية خالصة ولا واقعية دوجمائية. وبناء عليه، توضح اسمية هاكينج الديناميكية كيف تنحت العلوم الظواهر البشرية، وكذلك الآثار المترتبة على احتمالات الشخصية نتيجة دراسة الظواهر البشرية.

هكذا أوضح هاكينج عدم رغبته في أن يكون بنائيًا اجتماعيًا، مدافعًا عن أرضه الاسمية الديناميكية الوسطية بين الواقعية والبنائية الاجتماعية. وكتب هاكينج يقول: "يتناول معظم علماء الأبحاث المعاصرة الشيزوفرنيا بوصفها اضطرابًا بيوكيميائيًا أو عصبيًا أو جينيًا وراثيًا تحتيًا (وربما الثلاثة معًا). بينما يعتقد القليل من النقاد أن هذا الاضطراب عبارة عن بناء اجتماعي. غير أنني لا أرغب في الانضمام إلى أي من هذين الفريقين، وإنما أرنو إلى خلق مساحة يمكن فيها تطوير كلتا الفكرتين دون وقوع الكثير من المواجهة المباشرة، وكذلك دون التحدث عن البنائي الاجتماعي فحسب"[٢٤]. ذلك أن لهذه الأنواع أو الاضطرابات التفاعلية أساسا في الواقع، وكذلك علاقات تفاعلية بينها وبين التصنيفات.

ومن عيوب البنائية الاجتماعية المتطرفة (أو الكونية universal –بحسب تعبير هاكينج) اقتراحها طريقا ذا اتجاه واحد؛ ألا وهو المجتمع الذي يبني الاضطراب وحده من وجهة نظر ما، بينما ما هو واقع بالفعل عند هاكينج هو متاهة من الأزقة المتشابكة [عِلّيًا] [٢٥]. علاوة على عكس بعض الفئات البنائية تقسيمات واقعية، ومِن ثَمَّ لسنا في حاجة إلى أن نكون بنائيين بالمعنى الكوني المتطرف، إذ لا يزال هناك – تبعًا لهاكينج – مجال للتمييز بين أنواع بنائية تعكس فئات واقعية «كإساءة معاملة الأطفال»، واقعة بالفعل في زمان ومكان مُحددين، وتلك التي لا

تفعل «كطقوس التعذيب الشيطانية Satanic ritual abuse» التي هي عبارة عن بناء اجتماعي بالكامل، ثبت عدم وجوده بالتحقيق التجريبي في بريطانيا خلال التسعينيات[٢٦].

ثالثًا: إعادة تقويم بعض الردود على مقاربة هاكينج

قد يعترض بعض الفلاسفة بداية على أن حالات طبية نفسية كتوحد الطفولة autism تشكل تحديًا لأنواع هاكينج التفاعلية؛ لإمكانية عدم إدراك الطفل المتوحد لتصنيفه تمامًا. ومِن ثَمَّ، فقد يكون من الخطأ التصريح بتفاعل الأطفال المصابين بالتوحد مع تصنيف التوحد. ولقد لاحظ هاكينج هذه المشكلة، فجعل تصوره للتفاعل أكثر وضوحًا بقوله: "إنني لا أقصد بالتفاعل رد الفعل الواعي الذاتي لفرد واحد على كيفية تصنيفه فحسب، وإنما أقصد عواقب تصنيفك بالنسبة لجميع فئة الأفراد الآخرين الذين تربطهم بك علاقة وثيقة أيضًا"[٢٧].

وبناء عليه، لا تقتصر الحَلَقية عند هاكينج على التأثيرات المباشرة الناتجة عن كونك مدركًا لتصنيفك بشكل معين، لكنها تتضمن بالمثل مزيدًا من تلك التأثيرات غير المباشرة الناتجة عن توقعات أولياء الأمور والمدرسين والأطباء وتصرفاتهم –على سبيل المثال– تجاه الشخص المُصنَّف. وكتب هاكينج يقول: "إنني لا أقصد بالضرورة أن الأطفال مفرطي النشاط كأفراد على بينة بكيفية تصنيفهم، فيتفاعلون مع التصنيف. بالطبع قد يفعلون، ولكن التفاعل يقع داخل مصفوفة أكبر تتألف من المؤسسات والممارسات المحيطة بهذا التصنيف. ففي بعض الأحيان يوضع الأطفال الموصوفين بفرط النشاط في فصول دراسية خالية من المحفزات ... وتكون المكاتب متباعدة عن بعضها بعض، ولا تحوي الجدران أي زخرفة، كما توضع ستائر على النوافذ"[٢٨].

ولكن على الرغم من توفير هذا التفاعل الثنائي الاتجاه بين التصنيف والمصنَّف استبصارات مُهمة، قد يكون من غير الواضح مدى راديكالية هذا الادعاء. فهل من الممكن التصريح بأن تلك الاضطرابات العقلية التفاعلية هي تفاعلية على طول الطريق أسفل فأسفل، بحيث تؤثر في الظروف البيولوجية البشرية الواقعة تحتيًا، وتغيرها بالمثل؟ على سبيل المثال، دعنا نفترض أن

للتوحد عِلّة بيولوجية واضحة، يصبح السؤال حينئذ: هل يدخل التصنيف في تفاعل تحتي مع الكيان البيولوجي؟

لقد اعترض عديد من المعلقين على استنتاج هاكينج القائل بأن كيانات التصنيف في العلوم الإنسانية ليست أنواعًا طبيعية بسبب التأثيرات الحَلَقية. على سبيل المثال، ذهبت كوبر إلى أن هاكينج فشل في إثبات أن الكيانات المُصنَّفة في العلوم الإنسانية مختلفة بما فيه الكفاية عن كيانات التصنيف في العلوم الطبيعية. وعلى الرغم من تسليم كوبر بوجود التأثيرات الحَلَقية، فإنها تؤكد أن التغييرات التي تُحدِثها التأثيرات الحَلَقية لكيانات التصنيف في العلوم الإنسانية ليست ذات أهمية ميتافيزيقية أكبر من التغييرات التي تُحدِثها التأثيرات الاسترجاعية الأخرى لبعض كيانات التصنيف في العلوم الطبيعية. فعلى سبيل المثال، أدى تصنيف الماريجونا بأنها غير قانونية إلى زرعها في السندرات وخزائن الملابس، مما غير في مظهرها الفيزيائي. كما تغيرت خواص الماشية المُدجنة بمرور الزمن، نتيجة لتصنيف بعض الحيوانات بوصفها الأفضل، وتربية الأغنام والخنازير بشكل انتخابي بحيث تبدو مختلفة للغاية في الوقت الحاضر عما كانت عليه؛ نتيجة لممارستنا التصنيفية[٢٩].

وعلى الرغم من تسليم جوناثان ي. تسو Jonathan Y. Tsou بالوجود المفترض للتأثيرات الحَلَقية، أنكر أن مجرد وجود التأثيرات الحَلَقية سيجعل كيانات التصنيف غير مستقرة بالطريقة التي اقترحها هاكينج. ففي حين أن خبرات الفرد المُشخَّص بأنه مُصاب بالاكتئاب وسلوكه سيتغيران دائمًا بالطريقة التي يتم عبرها تصنيفه، فإن هذه التغييرات تستدعي تنقيحات في تصنيف الاكتئاب أو ما يعنيه عياديًا. وما دام بالإمكان – إلى حد كبير– تحديد الاكتئاب عن طريق مجموعة مستقرة من الخواص البيولوجية (كالنشاط الناقص للسيروتونين serotonin) المُحددة لمجموعة نمطية من الحالات الانفعالية (كمشاعر الحزن وفقدان السرور)، فإن الاكتئاب نوع طبيعي مستقر حتى في حالة التأثيرات الحَلَقية المترتبة على التصنيف ذاته[٣٠].

وبناء عليه، تحدى أنصار حجة التساوي Parity Argument بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية من ناحية وجود التأثيرات الحَلَقية ادعاء هاكينج القائل بعدم وجودها في الأنواع

الطبيعية. وقد حاول هاكينج تفادي هذه المسألة عبر تطوير تصوّره، وإفساح مجال لعدم مبالاة كيانات بيولوجية تحتية محتملة، وفحص التوحد كمثال لنوع تفاعلي وغير مبالي في الوقت نفسه. وقد نفترض أن هناك اعتلالًا بيولوجيًا أساسيًا يُنتج أعراضًا نصنفها بأنها أعراض توحد. وقد يعلن العلماء عن اكتشاف الحالات الوراثية أو العصبية أو الكيميائية أو غيرها من حالات (س) –على سبيل المثال– المُسببة للتوحد.

يقول هاكينج: "لنفترض أن هناك مرضًا وليكن (س)، وبغض النظر عن كيفية تحديده. ولنفترض أن المرض (س) نوع غير مبالي. وليست حالة (س) الكيميائية العصبية الجينية على دراية بما اكتشفناه ... تعد (س) نوعًا طبيعيًا بحسب المصطلحات التقليدية"[٣١]. ويضيف هاكينج قائلًا: "يماثل توحد الطفولة المرض (س) البيولوجي المُحدد، ومِن ثَمَّ نجده نوعًا طبيعيًا أو نوعًا غير مبالي. ونبتغي في الوقت نفسه التصريح بأن التوحد نوع تفاعلي؛ يتفاعل مع الأطفال المصابين به، ويتغير ويتطور بتغير الأطفال"[٣٢].

ولمحاولة إصلاح المعضلة الناتجة عن كون شيء تفاعليًا وغير مبالي في الوقت نفسه، اعتمد هاكينج على أفكار بتنام Putnam وكريبك Kripke لاقتراح حل سيمانطيقي[٣٣]. فقد أيد هاكينج فكرة بتنام القائلة بأن معنى مصطلح النوع kind يشتمل على كل من إحالته المرجعية referent (أو ماصدقه extension) وصورته النمطية stereotype. ووجد هاكينج أنه بتطبيق هذا الإطار على تصنيفات الطب النفسي تصبح الإحالة المرجعية لتصنيف كالتوحد هي المرض الباثولوجي (س)، بينما صورته النمطية عبارة عن كوكبة من الأفكار والأمثلة والنظريات والمواقف النمطية الأولية المرتبطة بالتصنيف حاليًا. ولحل معضلة كيف لشيء أن يكون نوعًا غير مبالي وتفاعليًا في الوقت نفسه، ذهب هاكينج إلى أن إحالة التوحد المرجعية هي نوع غير مبالي، أما صورته النمطية فهي كونه نوعًا تفاعليًا. وبهذا يمكننا استيعاب أن لبعض حالات الطب النفسي أساسًا بيولوجيًا واجتماعيًا، وكذلك الأخذ في الاعتبار تلك الحالات المرتبطة باضطرادات بيولوجية قابلة للتنبؤ، وإمكانية أن يكون لتصنيفاتنا تأثيرات حَلَقية (مباشرة أو غير مباشرة) على المصنفين أيضًا.

ومع ذلك، هناك عدد من المشكلات التي يمكن إثارتها ضد أجزاء مُهمة من ذلك الحل. وتتعلق إحدى هذه المشكلات بانهيار الفرق بين الأنواع الطبيعية والأنواع غير المبالية[٣٤]. فلِمَ ينبغي علينا قبول «المرض (س)» بوصفه نوعًا طبيعيًا؟ إن البداية التعريفية لهذا المرض قد تكون مسألة برجماتية للغاية. على سبيل المثال، من المعتاد على نطاق واسع أن يكون تأثير منخفض للاكتئاب ناتجًا عن فرط نشاط ناقلات عصبية أحادية الأمين محدودة. ومع ذلك، ينبغي للمرء أن يتساءل عند أي نقطة يتأهل فرط النشاط المُشكل للمرض (س) بوصفه نوعًا طبيعيًا أو غير مبالي. لم يزودنا حل هاكينج السابق بأسباب للاعتقاد بأن هناك بداية معينة ينطلق منها فرط النشاط المرضي. وبعبارة أخرى، لا توجد خواص متأصلة تمنحنا أسبابًا لتحديد بداية عند موضع معين واقع على التواصلية، وما يحدث هو تبرير البدايات والحدود في هذه الحالة عن طريق أسباب محض عملية، وبالتالي اللجوء إلى عوامل تقع خارج بنية الكيان نفسه. علاوة على أنه قد تتفاعل على الأقل بعض الحالات وتصنيفاتها مع الكيان البيولوجي التحتي، بحيث يصبح المرض التحتي (س) نوعًا تفاعليًا بالمثل. وبهذا نجد أن اعتلالًا عقليًا كالاكتئاب مفتوح وديناميكي سواء من الداخل أم الخارج (من الأعلى أم الأسفل).

وبناء عليه، يفشل حل هاكينج السيمانطيقي بقدر عدم قدرته على إثبات كيف أن التوحد – مثلًا– نوع غير مبالي حتى ولو في جزء منه، وبمعنى تصنيفه دون وقوع تأثيرات حَلَقية. ومع ذلك، لا نعتقد أن هذه العيوب المفهومية في عرض هاكينج قاتلة خاصة لأطروحته الشاملة في التأثيرات الحَلَقية، وإنما تحفز فحسب على تناول الأنا بالدراسة ككل دون الفصل بين جوانب بيولوجية وجوانب اجتماعية من حيث التأثيرات الحَلَقية المتبادلة بينهما.

ولعل هذا هو ما دفع هاكينج في أعماله المتأخرة[٣٥] إلى التخلي تمامًا عن مفهوم «النوع الطبيعي»، وطرح إطار أوسع لفهم التأثيرات الحَلَقية؛ إذ نجد أن الشبكة العِلّيّة في هذه المناقشة الأخيرة لا تقتصر على التصنيفات والأفراد المُصنَّفين فحسب، وإنما تضم الخبراء والمؤسسات والمعارف وغيرها، باعتبارها المولدات الأساسية للتأثيرات الحَلَقية أيضًا. ولا يعني هذا التصريح بعدم وجود أنواع في العالم، وإنما التصريح بأن فئة مُحددة بشكل جيد للأنواع الطبيعية قد عفا

عليها الزمن[٣٦]. والراهن أن عدم التجانس الهائل لبراديمات الأنواع الطبيعية مسألة تدعو إلى الشك، ولم تعد عملية إطلاق لقب نوع طبيعي على شيء تضيف أي معرفة جديدة، وإنما تقود بدلًا من ذلك إلى مزيد من التشويش. إنها براديمات متميزة تتشارك في تشابه عائلي، ولكنها لا تقود إلى مفهوم متساوق موحد.

الخاتمة

من الصعب تطبيق معلم تقطيع الطبيعة من مفاصلها على تصنيفات الطب النفسي البشرية. فقد تكون شبكات الأعراض المرضية معقدة ومركبة، والأفراد فريدين للغاية، إذ تبدو مفاهيم الاضطراب المجردة غير كافية بالمرة، بل وحتى غامضة، كلما اكتسب المرء معلومات عن حالات بعينها. إن تحديد ما إذا كان شيء اضطرابًا طبيًا نفسيًا يتطلب أكثر من مجرد تقرير كونه نوعًا طبيعيًا أم لا. ولهذا فإننا نتشكك في أن نحت المجال واضح للغاية مثلًا في حالة الاكتئاب في مقابل الحزن الطبيعي.

ليس على اضطرابات الطب النفسي أن تكون أنواعًا طبيعية حتى تصبح فئات علمية ومهنية ذات صلة. وبمجرد أخذ تعقد الأنا الإنسانية في الاعتبار، يصبح من الواضح كون المسار العِلّيّ للتأثيرات الحَلَقية أكثر تعقدًا من المتصوّر حتى اللحظة الراهنة. وتظهر دائمًا على السطح تأثيرات حَلَقية جديدة نتيجة حلول ظواهر جديدة، ومع ذلك تعلّم الأطباء كيفية التدخل في أشكال الأمراض والاضطرابات المختلفة، على الرغم من عدم إمكانية تحديد ما يشكل بعضها من ناحية الشروط الضرورية والكافية. وعادة ما يمضي العلم قدمًا بنجاح كبير حتى في حالة غياب الأنواع الطبيعية.

إذا أردنا الإجابة عن أسئلة الدراسة المتعلقة بكيفية فهم طبيعة أنماط الطب النفسي البشرية والاستفادة من تصنيفات الاضطرابات العقلية المبدئية، فعلينا اجتياز فشل الفهم ذي النزعة الماهوية Essentialism الصارمة للأنواع الطبيعية في الطب النفسي، دون الانزلاق في تواضعية بنائية راديكالية منفتحة أكبر من اللازم وموضع شك. إذ قد تميل هذه التواضعية إلى التركيز على السياق الاجتماعي وحده، متجاهلة معارف وراثية وفسيولوجية عادة ما تحظى بمكانة لا

تقل أهمية عن العوامل الشخصية الذاتية والسياقات الاجتماعية الثقافية المتنوعة الأخرى في حالات اضطرابات نفسية معينة. وإحدى سبل انتفاع أطباء الطب النفسي من تصنيفاتهم استخدام إستراتيجية مطابقة نمط مبدئي، تصبح الاضطرابات النفسية وفقًا لها أنماطًا مثالية قد تقترب فيها الحالات الفردية أكثر أو أقل على طول درجات التشابه. مما يتوافق مع النظرة القائلة برفض اختزال الاضطرابات النفسية إلى مجرد حالات وعمليات فسيولوجية عصبية أو قوالب مُحددة لأنواع الطبيعية.

الهوامش

[١] – يمكن تعريف النوع الطبيعي فلسفيًا بأنه تجمع من الأشياء يتمتع بالصفة «طبيعي» (في مقابل الصفة «اصطناعي»). وإذا كانت ثمة أنواع طبيعية بالفعل، فإن أمثلتها الحسنة هي العناصر الكيميائية مثل الذهب أو البوتاسيوم. كذلك يمكن أن نعتبر الجسيمات الفيزيائية مثل الكوركات أنواعًا طبيعية، بمعنى أنها تشكل تجمعًا من الأشياء يتسم بتميزه عن تجمع آخر. والحق أن المناقشات الفلسفية في هذا الصدد تتركز حول ما إذا كانت هناك بالفعل أنواعٌ طبيعية، وحول كينونتها إن كانت توجد حقًا ... والتعريف الدارج في الفلسفة للنوع الطبيعي أنه عائلة من الكيانات التي تمتلك بعض الخواص المقيدة بقانون طبيعي؛ فنحن نعرف الأنواع الطبيعية في شكل فئات من المعادن، النباتات، أو الحيوانات. ونحن نعرف أن الثقافات الإنسانية المختلفة تصنف الوقائع الطبيعية المحيطة بها بطريقة مماثلة تمامًا. وكان كواين Quine هو أول من استخدم المصطلح في الفلسفة المعاصرة، وذلك في مقاله «الأنواع الطبيعية» Natural Kinds (١٩٦٩)؛ إذ ذهب إلى أن أية مجموعة من الموضوعات يمكن أن تشكل نوعًا إذا كان من الممكن تمديد الأحكام المتعلقة ببعض أعضاء تلك المجموعة بالاستقراء العلمي لتشمل الأعضاء الآخرين (هامش ص ٢٢٧ بقلم المترجم د. صلاح عثمان في كتاب بسيلوس، ستاثس: فلسفة العلم من الألف إلى الياء، ترجمة: صلاح عثمان، ط١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، عدد ٢٥٣٩، ٢٠١٨).

[٢] – فيلسوف كندي، من مواليد عام ١٩٣٦، وأحد أكثر فلاسفة العلم تأثيرًا في النصف الثاني من القرن العشرين. من أبرز كتبه: «منطق الاستدلال الإحصائي**The Logic of Statistical Inference**» (١٩٦٥)؛ و«التمثيل والتداخل**Representing and Intervening**» (١٩٨٣) (يُمكننا لمزيد من التفاصيل حوله الرجوع إلى: بسيلوس، ستاثس: فلسفة العلم من الألف إلى الياء، ترجمة: صلاح عثمان، ط١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، عدد ٢٥٣٩، ٢٠١٨، ص ١٥٧).

[٣] – قامت مقاربة الكتيبات الدليلية التصنيفية الطبنفسية (التي على شاكلة Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders [DSM]) في بداياتها بشكل كبير على نظرة فئوية للاضطرابات العقلية، تفترض أن تلك الاضطرابات منفصلة ومنمازة كيفيًا عن بعضها بعض، وكذلك عن الحالة الصحية السوية. وانطلقت من الافتراض القائل بإمكانية رسم حدود واضحة قاطعة بين المصابين بالاضطراب العقلي والأشخاص الأسوياء عقليًا. وتعد هذه المقاربة إلى حد بعيد نتاج تبني تلك الكتيبات لنموذج الكيان المرضي disease، وتصور الاضطرابات العقلية كنتاج لعامل مرضي منفصل داخل البدن. ثم تشكك العديد من الأطباء النفسيين في هذا النموذج؛ لكون المشكلات النفسية ليست كيانات منفصلة، حاضرة تمامًا أو غائبة كليًا، دون ظلال بينهما؛ ودعوا إلى ضرورة تحرك الكتيبات صوب مقاربة بُعدية للاضطراب العقلي، تعتبر الصحة العقلية مسألة تدرجات كَمّيّة بين الأشخاص، وليست تمييزات كيفية منفصلة تخص الكل أو اللا شيء.

[٤] – ولد ساس في بودابست عام ١٩٢٠، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٨. كان يعمل فيزيائيًا، قبل أن يصبح طبيبًا ويتحول في النهاية إلى طبيب نفسي. وسرعان ما حرمته مواقفه العنيفة تجاه مؤسسة الطب النفسي منذ بداية الخمسينيات من متابعة نشاطه في العمل داخل المستشفيات. ومنذ عام ١٩٥٦، أصبح أستاذًا للطب النفسي بجامعة نيويورك (سيراكيوز) وحتى تقاعده عام ١٩٩٠. ويزخر تاريخه المهني بالمؤلفات النظرية (ما يقرب من ثلاثين مؤلفًا) نذكر منها بالتحديد: «أسطورة المرض العقليThe Myth of Mental Illness» (١٩٦١)، و«الأيديولوجية والجنونIdeology and insanity» (١٩٧٠) وغيرها (كيتيل، كلود: تاريخ الجنون: من العصور القديمة وحتى يومنا هذا، ترجمة: سارة رجائي وكريستينا سمير، القاهرة: مؤسسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٥، ص ٥١٧).

[5]-Szasz, T. S. "The Myth of Mental Illness". **American Psychologist**. 15 (1961): 113-118, p. 114

[6]– *Ibid*, pp. 113-118.

[7]– Cooper, R. **Classifying Madness: A philosophical Examination of the Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorder**. Dordrecht: Springer, 2005.

[٨] – من ضمن هذه المقاربات المختلفة لطبيعة الأنواع الموجودة داخل الطب النفسي: المنظور الماهوي لجيروم ويكفيلد Jerome Wakefield، ومنظورين غير ماهويين لريتشار بويد Richard Boyd وكوبر، ومنظور متشكك في تقليد الأنواع الطبيعية لبيتر زاكارPeter Zachar، ومنظور تعددي لنيك هاسلام Nick Haslam وغيرها (يُمكننا لمزيد من التفاصيل حول بعض هذه المنظورات الرجوع إلى: الفصل التاسع "الماهوية وتقسيم الاضطرابات النفسية" من كتاب مصطفى، عادل: وهم الثوابت: قراءات ودراسات في الفلسفة والنفس، القاهرة: مؤسسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٧، ص ص ١٥٥–١٨٣).

[9]– Hacking, I. "Kinds of People: Moving Targets". **Proceeding of the British Academy**. 151 (2007b): 285-318, p. 229.

[١٠] – من الخصائص المميزة للنوع (بمفهومه البيولوجي الحديث) أن له مجالا حياتيا خاصا من الوسط البيئي (الذي يضمه مع غيره من الأنواع), تستمد أفراده منه كل احتياجاتها المعيشية. وهذا هو المفهوم الكلاسيكي للمباءة لدى قدامى البيئيين وفي مقدمتهم «جوزيف جرينل» الذي كانت الطبيعة في نظره مكونة من «إقطاعيات» عديدة, كل منها مناسب لنوع بعينه من الكائنات الحية, وقد شاركه «تشارلز إلتن» هذا التصور الذي على أساسه تكون المباءة جزءا من الوسط البيئي. وفي وقت لاحق جاء «إيفيلين هتشنسن» بتعريف مختلف للمجال البيئي الخاص بالنوع هو أنه مجال متعدد الأبعاد للموارد المعيشية (ماير، إرنست: هذا هو علم البيولوجيا: دراسة في ماهية الحياة والأحياء، ترجمة: عفيفي محمود عفيفي، الكويت: عالم المعرفة، عدد ٢٧٧، ٢٠٠٢، ص ٢٣٥).

[11]– Hacking, I. **Mad Travelers: Reflections on the Reality of Transient Mental Illnesses**. Virginia University Press, 1998, pp. 1-2.

[12]– *Ibid*

[13]– Hacking, I. **The Social Construction of what?** Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999

[14]– Hacking, I. "The Looping Effects of Human Kinds" in Sperber, D et al (eds.), **Causal Cognition: A Multidisciplinary Debate**. Oxford: Clarendon Press, 351-383, (1995b

[15]– "Kinds of People: Moving Targets", *Op.Cit*, pp. 292-293.

[١٦] – يقول هاكنج: "لا تعني غير مبالي السلبية. ومثل هذا أن البلوتونيوم يصنف بأنه غير مبالي، ولكنه ليس سلبيًا. إنه يقتل، وموجود فحسب لكون البشر قد خلقوه ... ومع ذلك، لا يتفاعل البلوتونيوم مع فكرة البلوتونيوم، بمعنى إدراكه لتسميته، أو اختبار وجوده في مؤسسات البلوتونيوم من قبيل المفاعلات والقنابل وخزانات الدبابات. وهذا مأتى وصفه بأنه غير مبالي"

. (**The Social Construction of what?** *Op.Cit*, p. 105)

[17]– *Ibid*, p. 108

[18]– Hacking, I. "On Boyd". **Philosophical Studies**. 61(1991a): 149-154, p. 154

[19]– Hacking, I. "The Making and Modeling of Child Abuse". **Critical Inquiry**. 17 (1991b): 253-288, pp. 254-255

[20]– Takin, S. "The Missing Self in Hacking's Looping Effects" in Kincaid, H Sullivan, J (eds.), **Classifying Psychopathology: Mental Kinds and Natural Kinds**. Cambridge, MA: The MIT Press, (pp. 227-256), 2014, pp. 241-242

[21]– "Kinds of People: Moving Targets", *Op.Cit*, p. 293

[22]– Hacking, I. **Rewriting the Soul: Multiple Personality and the Sciences of Memory**. Princeton, NJ: Princeton University Press, (1995a), p. 21

[23]– Hacking, I. "Making up People" in Hacking, H (ed.), **Historical Ontology**. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002, p. 165

[24]– **The Social Construction of what?** *Op.Cit*, p. 101

[25]– *Ibid*, p. 116

[26]– *Ibid*, Ch 5

[27]– *Ibid*, p. 115

[28]– *Ibid*, p. 103

[29]– Cooper, R. "Why Hacking is wrong about human kinds". **British Journal for the Philosophy of Science**. 55 (2004): pp. 73-85

[30]– Tsou, J. Y. "Depression and Suicide Are natural Kinds: Implications for Physician-Assisted Suicide". **International Journal of Law and Psychiatry**. 36 (2013): pp. 461-470

[31]– **The Social Construction of what?** *Op.Cit*, p. 116

[32]– *Ibid*, p. 119

[33]– *Ibid*, pp. 119-124

[٣٤] – تخلى هاكنج بحلول عام ١٩٩٩ في كتابه «البناء الاجتماعي لأي شيء؟» تمامًا عن أي حديث عن الأنواع الطبيعية. وأصبح يستخدم بدلًا من ذلك مصطلح «النوع غير المبالي» إشارة إلى الافتقار إلى التأثيرات الخَلَقية

[35]– Hacking, H. "Natural Kind: Rosy dawn, Scholastic twilight". **Royal Institute of Philosophy**. 61 (2007a): pp. 203-239

"Kinds of People: Moving Targets", *Op.Cit.*

[36]– "Natural Kind: Rosy dawn, Scholastic twilight", *Op.Cit*, p. 205.

المصَادر والمرَاجع

أولًا: المصَادر والمرَاجع باللغةِ العربيَّة

١. بسيلوس، ستاتس: **فلسفة العلم من الألف إلى الياء**، ترجمة: صلاح عثمان، ط١، القاهرة: المركز القومي للترجمة، عدد ٢٥٣٩، ٢٠١٨.

٢. كيتيل، كلود: **تاريخ الجنون: من العصور القديمة وحتى يومنا هذا**، ترجمة: سارة رجائي وكريستينا سمير، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٥.

٣. ماير، إرنست: **هذا هو علم البيولوجيا: دراسة في ماهية الحياة والأحياء**، ترجمة: عفيفي محمود عفيفي، الكويت: عالم المعرفة، عدد ٢٧٧، ٢٠٠٢.

٤. مصطفى، عادل: **وهم الثوابت: قراءات ودراسات في الفلسفة والنفس**، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٧.

ثانياً: المصَادر والمرَاجع باللغة الإنجليزيَّة

1. Cooper, R. "Why Hacking is wrong about human kinds". **British Journal for the Philosophy of Science**. 55 (2004): pp. 73-85.
2. Cooper, R. **Classifying Madness: A philosophical Examination of the Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorder**. Dordrecht: Springer, 2005.
3. Hacking, I. **The Logic of Statistical Inference**. Cambridge: Cambridge University Press, 1965.
4. Hacking, I. **Representing and Intervening**. Cambridge: Cambridge University Press, 1983.
5. Hacking, I. "On Boyd". **Philosophical Studies**. 61(1991a): 149-154.
6. Hacking, I. "The Making and Modeling of Child Abuse". **Critical Inquiry**. 17 (1991b): 253-288.
7. Hacking, I. **Rewriting the Soul: Multiple Personality and the Sciences of Memory**. Princeton, NJ: Princeton University Press, (1995a).
8. Hacking, I. "The Looping Effects of Human Kinds" in Sperber, D et al (eds), **Causal Cognition: A Multidisciplinary Debate**. Oxford: Clarendon Press, 351-383, (1995b).
9. Hacking, I. **Mad Travelers: Reflections on the Reality of Transient Mental Illnesses**. Virginia University Press, 1998.

10. Hacking, I. **The Social Construction of what?** Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999.
11. Hacking, I. "Making up People" in Hacking, H (ed.), **Historical Ontology**. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002.
12. Hacking, H. "Natural Kind: Rosy dawn, Scholastic twilight". **Royal Institute of Philosophy**. 61 (2007a): pp. 203-239.
13. Hacking, I. "Kinds of People: Moving Targets". **Proceeding of the British Academy**. 151 (2007b): 285-318.
14. Szasz, T. S. "The Myth of Mental Illness". **American Psychologist**. 15 (1961): 113-118.
15. Szasz, T. S. **Ideology and insanity: Essays on the psychiatric dehumanization of man**. Garden City, NY: Doubleday Anchor, 1970.
16. Takin, S. "The Missing Self in Hacking's Looping Effects" in Kincaid, H Sullivan, J (eds.), **Classifying Psychopathology: Mental Kinds and Natural Kinds**. Cambridge, MA: The MIT Press, (pp. 227-256), 2014.
17. Tsou, J. Y. "Depression and Suicide Are natural Kinds: Implications for Physician-Assisted Suicide". **International Journal of Law and Psychiatry**. 36 (2013): pp. 461-470.